

« الجسد والكلمات »

« حلمت ليلة أمس أن جسدي من كلمات »

أتى لك ألا تكون مراهم ذاكرة ما !

فرح الكتابة كان لي المنقذ. أدين بخلاصي للكاتب الصديقة ولهذا المراهق ذي اللمة المتراخية المسرح على الكون نظريه الساخرة. كنا ثانيا متلازما، وكانت صداقة دائمة التجدد. يرسم فأقرض القصائد، يعني فأرجل أطراف أغنيات، يلتهم القصص المصورة ويستهل سلطة أساتذة نحاصره بدسائسنا المنسوجة من خلاصاتهم المضحكة وهفوات ألسنتهم. واتخذنا الادب ملكا لنا. أصطنعنا الكتابة، أناقة الكتابة، فنا إرهابيا ورباطا سريًا، عبرنا السنين نركب الانبهار فبركنا. أصبحت كاتبًا عموميًا، يكلفني الطلاب الداخليون يوم الاحد أن أملي عليهم رسائل غرامية يبحثون بها لصديقاتهم، ويأتونني بصور يبحثون بها الهامي. وأنا بين قواميسي مشرق بتجلياتي، وعديد تعدد هذا الهوى التراسلي، أبقى على هذا، حتى الظهر، أدير حساسية العالم.

وأق الشعر على الباقي. أحببته، بدويا، أول ما أصببت يلفحه المجاز، مجاز كهان الجاهلية خاصة منهم أمراء القيس، بتعاويذه، الرقيقة. في تلك القياي فقد حبيته وما هو يعبر الزمان ملاطفًا فرسه، وينطوي في هبة القوافي. هيات ذلك الزمن الحاد إذ يفجؤك الاستمنا في الشارع أو في الماخور، أختفي، لعبا، في الكلمات وأقضم الايات، اخترتها في دفتر صغير، اصفر على الايام، أقرأه، قبيل النوم. ومن يوم ليوم، بل صورة لآخرى، تتقاطع في آلاف الحيات فأعج بها ثم أغادرها، تمتلك السعادة فكري والجنون.

وأمارس تمرينا آخر : تجوسسُ الكتب كيفما اتفق، خلق مته متقاطع برفق وارتعاش، وأقرأ روايات أولف أخرى، فتودي بي هذه الشياطين الساحرة، أن يحين النوم، إلى تعب أسقط من لذته في الاحلام.

وما إن تنته رواية حتى توافيني ومضات ما بين الاسطر توترًا عنيدا، فتطربني، وإن بوست، رحلتها الواهمة. وما أنا حسب الصدفة ينبوع، زهرة أو فراشة. كانت القراءة تردني إلى الحياة، تردني إلى الموت. يهزني عطر كلمات، فأهتز: وما أشقه عملا أن تبطلع قاموس الروي

والترادفات. غير أني كنت أترزع الكتاب من مؤلفه وأخذته لساناً لمرآتي. وأطغى فأفرغ هذا الكتاب أو ذاك من عنقه ولا أستبقي منه، لخيري وخير المؤلف نفسه، إلا بضع جمل أخذها في دفتر استشهادات، وأنسبها بشحطة قلم عابئة إلى مشاهير الكتاب. ويسكت الاساتذة، فلا مرد إذن لسלטني ! كنت أشد ميلا إلى الكلمات الغربية التي تلج بي خفايا بلدان بعيدة. لقطات وحسب ؟ لا، بل تجاسد أبكم، جليدي. بعد لحظة السعادة، أعلم الكلمات بلون ضارٍ لأرسخ في علاقاتها النهائية ثم أرددها مغمض العينين. وتنفجر المعاني، فأتجنب الفهم إذ دونه هلاكي. الفهم موت. تلالي الكلمات في عكر شديد، في غش فاضح، فأكتفي به وكمثل الكهف، تولد الكلمات على الرغبة، فترافق خطاي وتضاعف من الآلة عرافتي.

في الأباحة كما في قاعة الطعام، كنت أبسم لرفاقي في ذهول. لا أحد يدرك قدرة انشطاري، حيث أعيش منيعا في وحدة كيان طروب. أعلى غطاء السرير فأخفي الشمعة وأتهي باحتداد، بعيدا عن عين المراقب، كتابا أحمله منذ الصباح فيما أحتاط في جيبي بكتاب أو كتابين غيره. في الحياة الجماعية، كنت الزم الحياد والانضباط. كنت ناعسا، مجرد ناعس، ينفجر ضحكي مفاجئا جنونياً، من لا شيء، فتتسلط الانظار إلى جنوحي. ينطلق أمر المراقب وما أن يبلغني حتى ينفس فقاعات فقاعات. أنسى الكرسي وينتفخ الجسد متحررا من العضلات مشعا بين الكلمات.

إيقاع حياتي ! يجذ الآخرون وأحلم، ينامون وأطالع، أشرد، على الدوام أشرد، وأنظر إلى الآيات الخارجية عبر ثقب. ومساء أنقص شخصية جوليان سوريل تقمصني لشخصية كل مراهق ألتقيه في الأدب، فاقبض بسأمي كبيرا وأعوم من المطلق إلى المطلق خالدا. لأنطلق حيا أو ميتا، عابرا الليل مبدعا دينا آخر. وأرسلوا بنا إلى قاعة الطعام فلم يفصلني عن سوريل قيد أنملة. كيف السبيل إلى تلقم هذه الرواسب العجينية بيد فاترة ؟ اعتادوا الرثالي وتركوني في قصري الصغير وحين كنت أعود إليهم، احتجب بمرح مفاجيء ملطخا الهواء بحركات رحية جزلة.

شاعر مريض غادر في مطلع هذا القرن مسقط رأسه، ينهكه السعال، ثم تمدد على حصير لينام. هل تحدث عن آية تواطأت وآياه ؟ زرع هبت على شعوه فاندثر في السحر، قال كلمته البكر فكانت البشرية. جيران، ابتداء صفصافا باكيا ثم حرم أمره، بالهويني، نيبا. و أعلن ذلك بنفسه : إني ابن زرداشت. وما عم أن اندمج الاثنان لدي. فواحدما توفي شابا، بعلم مسبق منه، وأنا كذلك كنت متيقنا أني سأموت في الشباب. أحلم ذوى وها هو الآن يهاجر في هذه المراهقة : سأكون أقله قد. مت ذات في الكلمات. وثانيتها تفرس حتى النهاية في جنون لا يحمى. وأنا كنت، في الخامسة عشر، أرق نفسي نيبا منغيا. ولكن إلى أين ؟ فقد كانت رقتي أقرب إلى الكمود وكتابتي إلى تفاهة البردى.

مساءً، كنت أمشي بعد العشاء، منحني الرأس بين قنطرتين، معترضاً الهواء بيمنائي. كنت أُلد عمق المتوحد. أصداف الآخرين، فارمقهم بحول برىء، يزعجونني فأتملص. صرت آخر، ديمومة غريبة الطور، مسكونة بالورع. أتذرع بذلك فأركن المجتمع جانبا وأنذر للمتوحد نفسي. لم يكن عيشي ليل نهار من أحلام مستعارة إلا صورة غائبة عن جسد انسحب الواقع منه وكأنما تجتازه هلوسة رغبة ممتعة، اهتزازية، لم يسمها انسان.

كنت، في شلة من أصدقاء لا أفضّ من مضجعهم، أسعى إثر صدمة ما. اعترضنا التاريخ فقلبناه : ماذا لو انتصر العرب على شارل مارتل وفتحوا أوروبا بأسرها ؟ بهرنا بالغرب فأخذنا نحو عنا ما يمايزنا ونحاول تفكيك ذاكرته. أيتحتم علينا الاختيار بين الواقع والحلم !

في هذه السن، اخترت الوحدة والاخوة الابدية. فانتقيت أهتي خاصة من الشعراء الشامسيين والمنفيين والمجانين والمتحررين والمتوفين في شباهم والمسلولين، وعندي أنهم قد غابوا إلى الابد في الامم المحض.

في الصف، كنا نستعرض الشعراء الكلاسيكين، وهم الآلهة الرسميون، فنبتلهم جرعة جرعة. كل سنة مأساة وملهاة يتعادل بهما نعاؤنا. وإن آتانا الحظ تدرنا على تقطيع البحر الاسكندري، بوزنه المتسبب، فيحملنا على رقص مفاجيء. هكذا تدور بنا الثقافة. كان أستاذ الفرنسية، ليأخذ بألبانيا، يغلث النوافذ الخشبية ويزرع ذارعاً القاعة. اسلوب استبدادي يعتمد على نفسه عن أنفسنا وبهنا ثقافة صريحة، ركيئة، لا ارتداد عنها. وحلت الطقوس في درسه محل الثقافة وصليل الحديد وذلك الغناء الداخلي المتراقص لي. وفتح النوافذ. آتاء برهة ينطلق الجسد من عنانه والشمس تعود، فيعلن : الشرح. وتمتعا المناسبات فتمثل بعض المشاهد. كان هذا المسرح، على بؤسه، يتخلقنا آخرين، فتتوالب فرحا في معمعة سؤال وجواب. وكان للأستاذ تلميذ، يزعق هو أيضا، فنغتنم الفرصة، لنخدش الصمت عند خمود صيحانه، بصريف مشين، ورافقه حتى النهاية إلى أقصى اضطرابه، فبهدر الأستاذ : التلميذ التالي. فأتللم في حيزي الشخصي كالنحلة، أنقل راداري في سهول كورنای القاحلة وأسلطه على البحر الاسكندري المتعرج، لكن دخانه الاسطواني كان يلهث هائلي. وها هي القافية تنفك من جفافه العقيدي. وأتخيل جمالين ساهين شكوا سيوفهم في الرمال وأقاموا يرقبون الصبح لاستئناف المسير، كانت شخصيات كورنای تجمديني سأمًا فلا أمر بمقطع من مقاطعها البطولية إلا وغالبا ما أتجاوزها. في نهاية التمثيلية يجمع كل أمواته وأجزز⁽¹⁾ «قبيلة الكلمات» وأترقب.

(1) جَزَز الكلمة : نقلها على جزرات ورتبها.

وأقفر صفا فأكتب على «سينا» بعد أن أحرق «السيد» بغضا بالابطال، أميل إلى الآلهة الساقطة. لعل ما يربطني ربطا رقيقا إلى هذا العالم الصوتي المهندس بصرامة، إن هو إلا ذكرى مستعادة عن تلك البلاغة الجليدية وتلك التعويذات الهائلة. كان كورناي من أواخر أولئك الشعراء المسلمين وكان عالمه الاقطاعي يماس أساطير الطفولة الشعشاء.

أوسعك أن تتحدث عن أحدهما دون أن تغرى الآخر ؟ أقصد : راسين وكورناي والتوازن بينهما. كان علينا أن نختار ولم نفلح فينسب كل شيء مهراقا بين هويات متآكلة. ونختلق من ركام هذه الثقافة المتلقنة لوحة من ملصقات. يطرح الأستاذ المشكلة التالية : «افرضوا أن كورياس قتل هوراس وقصوا ما يجري» ... جاري من الامام حل المشكلة بأسلوب إداري صرف. بدأ قصته بحرية خالصة : «بشرفني ويؤسفني أن أصرح لك أني قتلت ابنك». الثقافة لم تكن لتشغل هذا الصبي، فيفضل عليها معايشة الكرسي المؤخره. كان يكتب كما يخفي المدير، يمزج الفن بالرقابة والكلمات باعتباطيتها ويسمي الكتاب باسمائهم الشخصية. فتركه يتهوى مكانه ويزعجه عنه حين يفئنا جفاف كورناي فنبرزه.

انهوست بالتقليد فصرت أتم القصص ببحر اسكندري ثقیل ملهوج، أتودد به إلى أستاذ الفرنسية إذ أن كورناي طريقي إلى أبدية الآخر. ها الغرب يتحفنا بجناته، فأحلم بأني صفوة مخنارة، إله بين الآلهة. جهدت مدة أسبوع قضيته متوحشا وبطلا ملحما فتوفر لي هول ايقاع كوني. وها أنا بمسرحيني، مكتملة كانت أم مبتسرة، برفقة كورناي في الدرك الاعلى، لا ريب في ذلك، بينا الأستاذ، وسطا، يوزع الادوار بين الثرى والثريا، والصف أسفل المراتب في نقيق.

كثيرا ما حاولت، في معرض قراءتي، أن أقتع الآلهة الرسميين، وأحيدهم بتقليدهم، فنشبت بهم بدءا وحين نوتت بتلك الجيرة، تحولت نحو صريحا إلى السخر بهم، وكنت أظنه يعتقني من استعمارهم. كنت أرفق بأصنامي وأعذب الآخرين فأضيف إلى دواوينهم قصائد غير منشورة، أستخرجها من مكتبي الرحالة، الزخمة، الطاغية. كان هوجو عزيزا علي فأصابته الحنة ولزمته قواف تفرقع. أما راسين فأحطته بالخطر وجعلت أقرأه قبل النوم رغم ثقلته المضنية والمخيرة للاهواء. كانت هذه الشخصيات تدهشني في الفتها الالتم والموت المحجب، بينا كان جسدي يخن إلى نشيد حنين. وأحب إلي من السمو الكتابة الهشة أو استشاطة الغضب أو ركوب الوعر. إنها الرومانسية الصرفة الخالصة بذاكرة حشوها أساطير، وآهة عرجاء، وهاجس إضفاء الشاعرية على كل ما سواها. كنت أعوم فأني تاريخ يتيم أو عدائي يقوى على فكي. كنت أرقب انفكك الزمن وابتداء حياتي الحقيقية في نشوة ميلاد جديد. يبدو أن المراهقة تستوى عند الصرخة المتألمة إلى الاهتداء، فأظن والحالة هذه، أني أملت أن يدهمني الواقع. ومضى التاريخ وأنا باق في حجري أراقب نفسي حين تصحو مع الآخرين، أو تدرس أو تقنات أو تنام وأبتسرها بتبصصي المتجهم.

كنت أكتب ويا له من عمل لا يأس فيه يغوى النوم، يغوى التيه. أكتب إذ الكتابة وحدها وسيلة للاحتفاء عن العالم، للانتشال من السديم، للانشحاذ بالتحود. ألا أؤمن بمصير الاموات؟ فلم لا أركب دائرة أديتي؟ كنت أحجم عن الاختيار، إذ لا أريد أن أسدد ثمن هذا الألم، بل أريدني مرحا، حين يفضحتني النهار، مرحا لا شك فيه، مقتلع الجذور، عاصفا. عرجت فترة، بتأثير شقيقي اليكر، على الرواية العربية الحديثة. فكانت قصائدي العربية الأولى. ولم أوقع هذه القصائد. رهانا أنها تنتمي إلى مفهومي عن الرخ.

لنوميء الآن الى قصائد المراهقة ولنزعجها قليلا، كما يليق، معرضين عن رعشتها التي صارت الآن الى ذبول. كنت أنشئ القصيدة ذات الادوار والسونيته حسب تنالي الفصول وأشخذ بعدها بأمانة بعض أبيات تم بالاقلاع أو تأتي مجرحة أو مصلصلة. فأطيق، مثلا، على الورقة شجوى مسائية وأطلق لنفسي عنان الحلم وأجيزها أن تنهي العالم عن انبس فينجلي انصاتي. والحق أن الطبيعة بأكملها كانت في عوني مبيحة نفسها لسلطة خطوطي. ويروح تقمصي الصغير يتوالد بحيث أني أغض الطرف برفق عن قدرتي اللامنتاهية. وفي هلامية الخريف بعد أن أوغل في النوم وفي الحلم، انطلق نشوان من نهاية سونيته إلى قصة شجوى واصديقتاه؟ هكذا صرخت خلال هذين اليومين، صديقتي، يا صديقتي، العذبة....

ولتسح القافية شاطحة، بأسرع من لمح البصر، فانتظر، هادئا، أن تنغو على ريشتي، وكثيرا ما تنعجم، أعاجيب أخرى. ذلك نفس جزل! فتأتي الكلمة متجملة بعلامات كتابية، خلاصة مرتعشة لانباري أمام الورقة البيضاء. ومن كان له أن يجرو على منعي من تقفية «بد» و «برد» وأنا اضطر من جرأتي؟ من؟

صدتني هذه البراءة فجعلت أعارض شعر الآخرين وشعري الشخصي، ابتكارى المنقطع النزر كالحوزقة. أفلد بريفر فأختم قصيدتي ببهلوانية كأن أقول: لقد أدرك الفتى كافة ما يدركه كل فتى حين لا يدرك من الفتيات إلا الماما.

ولم يكن بد من نذر هذا الهوى: رفعتي الشعر فنذرت نفسي عاشقا. دعوت عشيقتي «الحمامة الوديعه» ونفسي «فرحزين» (1) كانت تنشر في «الخميس الأدبي» في صحيفة «ماروك — برمس» وأنا كذلك. ودام النذر سنتين. وقلت: سيتزوج كل شيء بالحب. كنت أشتهيها كلما فتجيني تهدات مبهمه.

وجعلت أطوف بانتظار أن تنجلي الامور وهمت خيالاتي (2) بالإنتلاق فإذا بنسوة

(1) فرحين، كلمة مؤلفة من: فرد وحرين مقابل ك solitriste

(2) خيال مقابل لكلمة fantasmе

يساورني وسواسهن فاترقبهن في منعطف كل شارع. وامتنعن عني إلا صورتين في قافيتي
فأنجسها ولا يتشكك مخلوق.

أيها المراهق يا أخضر العينين، نفسي أنت تنطقها ثم إلى الماخور فتغور في فروج كفهوه
البراكين. حلم مزعج مراهقتك. ها أنت، معتمداً غانية، تطوف فخذنا وتتبع ذاهلاً دخان
لفافة لم تنطفئ بعد وتؤوب إليها، تنزلق على الرصيف انزلاقاً لثلاً يفضح أمرك، و لا تراها من
جديد إلا وهي مفتحة العينين وأنت خاو.

الآن توافيك «الحمامة الوديمة» للمرة الأولى، فاركض وحث الخطى وامسك بيدك صحيفة
تستدل بها عليك. ستحضر متوثبة، متواجبة، وسيطالب ثوبها يدك أن ترقص رقصاً حقيقياً.
فهتديء من أعصابك وفك من عقدة لسانك، يخلق من أحلكا إلى الآخر بضع جمل نشوى،
رقيقة، ملاسمة. ها أنت تخطو خطوة وها هي تتخطاك وترسل يدها في الهواء. تتوقف وها هي
جالسة تحقر في المقعد ثقباً. وهل من حال أبأس من حالك وانت تنشر حياتك وترقبك
وصغار تعاساتك ! انها الآن تتسم ويتيه نديها بعض التيه فيما يشبه مهزلة محكمة. صحيح
أنت تدعي أنك ستمتلئها كلياً الصيف المقبل. غير أنها سوف تتركك في الحديقة، ممسكا
باليذ صحيفة وسوف ترحل فترة أخرى في ملاقاتها، وسوف تأتي إلى لقائك. وسيخيب الأمل
بنفاهة فتقف متجمدة، مجموعة الفم، دلتنا، توحدا. فاشرق بدعمك وانصرف قل : وداعاً أيها
الأدب التراسلي، أيها الشعر الناهد. وإن بدا لك أن تعاند فحاول فتاة أخرى وغازل هذه
الدهقلة العوراء فسوف تضمك إليها وهي تصرف بالاسنان. ولن تحصدا معاً، والثوب منها
حتى الرأس، إلا العناء. إنها تسعى إثر زوج وأنت ترغب في امرأة فاغتنمها حجة غريبة على
مثيلاتها إذا صرت في وضعيات جنونية. هدم فؤادك الموداد في شعرك الفقيد فلن يبقى لك
إلا امتلاك الجسد السيد مغالباً نفسك والآخريين. وبعد، أيها المراهق يا أخضر العينين، لك
رأس مفكار، التاريخ يترقبك، صدقتي، ولسوف تكون.

فصل من رواية «الذاكرة الموشومة» - زحمة بطرس الخلاق.